

حرب لبنان وقوى السلام الإسرائيلية

علّ إسرائيل تتعلم الدرس!

. جـ وئيل بينين .

المتظاهرون باستقالة رئيس الوزراء ووزير الدفاع وهتفوا: «لن نقتل، لن نموت باسم الصهيونية» و«لن نموت ولن نقتل خدمةً للولايات المتحدة». وفي ٥ آب (أغسطس) تظاهر ائتلافٌ مكونٌ من عدّة آلاف من الصهاينة وغير الصهاينة في تل أبيب، بمن فيهم أعضاء سابقون في حزب ميريتس الليبرالي الصهيوني: موسي ران، ونعومي هازان، ويائيل دايان

كان «ائتلاف النساء من أجل السلام» قوة بارزةً وديناميكيةً في مواجهة الحرب هذا العام. وعلاوةً على تنظيم تظاهرة من ١٠٠٠ شخص في ٢٩ تموز (يوليو)، أوردت خلود بدوي (وهي مواطنة فلسطينية عربية في إسرائيل) ويانا كنويوفا (وهي مهاجرة أوكرانية يهودية) نبأً خروج أكثر من دزينة من المظاهرات المعادية للحرب واعتصامات لإضاءة الشموع، بقيادة نساء إسرائيليات وقد ألهمت أعمالهن احتجاجات عالمية، نُظمت كثيرًا منها مجموعات يهودية، في حوالي ٦٠ مدينةً في العالم. وفي إحدى هذه التظاهرات، في سان فرانسيسكو تحديدًا، تمّ توقيف هنري بيشويتو (وهو يهودي من أصل لبناني ورئيس هيئة «الصوت اليهودي من أجل السلام» - وهي

أنصارًا لحركة «السلام الآن» - وهي أكبر منظمة صهيونية مؤيدة للسلام. خلصت لجنة التحقيق، برئاسة رئيس المحكمة الإسرائيلية العليا إسحاق كاهان، إلى أنّ شارون «تجاهلَ خطرَ أعمال الثأر وسفك الدماء من طرف الكتائبيين ضدّ سگان مخيمات اللاجئين»، وأوصت باستقالته أو بأنّ يعمد رئيس الوزراء إلى صرفه. هذا وقد قُتل أحد نشطاء السلام، واسمُه إميل غرونزقاغ، على يد متطرفٍ يميني، حين كان الأول يغادر تظاهرةً تطالب بتنفيذ قرارات لجنة التحقيق.

وبالمثل فقد تظاهر ٢٠٠ شخص في تل أبيب احتجاجًا على قصف لبنان، وذلك بعد ساعات من بدئه في ١٣ تموز (يوليو) ٢٠٠٦. وبعد أربعة أيام سار ما بين ٦٠٠ إلى ٨٠٠ شخص عبر شوارع تل أبيب يهتفون ضدّ الحرب. وفي ٢٢ تموز، طالب ٢٠٠٠ شخص، من بينهم عددٌ كبيرٌ من مواطني إسرائيل الفلسطينيين العرب المنظمين من قبل «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» و«التجمّع الوطني الديمقراطي»، بإنهاء الهجوم على لبنان. وقد استنكرت هذه المظاهرة بشكلٍ صريحٍ سياسة جورج دبليو بوش «الشرق الأوسط الأكبر». وطالب

من يذكّر حرب إسرائيل على لبنان عام ١٩٨٢ سيذكر أوجه شبه كثيرة مع حريها عام ٢٠٠٦: من الاعتداءات الوحشية ضدّ المدنيين؛ والتدمير الواسع للمنازل والبنى التحتية المدنية؛ والقصف الجوي العشوائي؛ واستخدام القنابل العنقودية المحرمة دوليًا، إلى آخره. ولكن كانت هناك أيضًا معارضة يهودية - إسرائيلية للحريين كليهما. في العام ١٩٨٢ صارت تلك المعارضة ضخمةً واخترقت ساحة القوى السائدة، أما في سنة ٢٠٠٦ فقد بقيت المعارضة هامشيةً رغم ثباتها وكفاحيتها.

في اليوم الأول من الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، تجمّع حوالي ٢٠٠ محتجٍ للتعبير عن معارضتهم. وخلال أسابيع وصل عددهم إلى عشرة آلاف. كانت تلك التظاهرات المبكرة من تنظيم إسرائيليين راديكاليين، كثيرٌ منهم غير صهاينة. وفي أعقاب مجزرة صبرا وشاتيلا في ٢٥ أيلول (سبتمبر) تظاهر مئات الآلاف في تل أبيب مطالبين باستقالة رئيس الوزراء منحيم بيغن ووزير الدفاع أرييل شارون، وإنشاء لجنة قضائية للتحقيق في المجزرة. معظم المتظاهرين آنذاك كانوا يُعتبرون أنفسهم صهاينة، وكان كثيرون منهم

المعارضة الإسرائيلية لحرب
عام ١٩٨٢ كانت ضخمة،
ولكنها بقيت هامشية عام ٢٠٠٦.

- مثل أعضاء الكيبوتزات ونقابات العمال، ومعظم طبقة الأنتلجنسيا والحركة النسائية، وغيرهم - أن تلك الحرب لم تكن حرب «هُم». ومن ثم كان في مقدورهم أن يعارضوها من دون أن يَطْرَحُوا أسئلةً جوهرية، رغم أن أعمالاً جذريةً من قبيل رفض الخدمة العسكرية تحدت الموقع المركزي الذي يحتله الجيش في المجتمع والثقافة والسياسة الإسرائيلية

دفعت معارضة الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ١٩٨٢ عدة ناشطي سلام صهاينة إلى الدعوة إلى التفاوض مع منظمة التحرير، وإلى إنشاء دولة فلسطينية في الضفة وغزة، وإلى انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان. وسعوا إلى معاهدات سلام تُضمّن الاعتراف بإسرائيل وأمن إسرائيل، مقابل انسحاب إسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة. لكنهم لم يفهموا أن معاهدة السلام مع مصر عام ١٩٧٩ لم تكن مقبولةً من العالم العربي لأنها تجاهلت المسألة الفلسطينية وسهلت غزو لبنان عام ١٩٨٢. وإذ شعر هؤلاء الإسرائيليون بالخيبة من الرد الشعبي المصري والعربي على المعاهدة مع مصر، فقد تبنوا مفهومًا للسلام تعيش إسرائيل بموجبه منفصلةً عن جيرانها

السلام والتسوية مع الفلسطينيين ومع جيرانهم العرب. غير أن نقد النزعة العسكرية الإسرائيلية كان هامشيًا، من الناحية السياسية، حتى سنة ١٩٨٢. وحركة السلام، التي انبثقت رداً على غزو لبنان آنذاك، استجمعت قواها وبلغت ذروتها أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩١) فخلال ذلك العقد (١٩٨٢ - ١٩٩١) رفض مئات من الجنود والضباط أن يخدموا في لبنان أو الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وبعضهم خضع لأحكام سجن متلاحقة. وشملت نشاطات التضامن مع الشعبين اللبناني والفلسطيني اجتماعات قام بها إسرائيليون مع ممثلين رسميين عن منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تلك الاجتماعات مخالفة للقانون الإسرائيلي آنذاك

أصبحت حركة السلام الإسرائيلية ظاهرةً جماهيريةً في الثمانينيات لأن كثيراً من الإسرائيليين الذين اعتبروا أنفسهم صهاينة صدمتهم تجاوزات حكومتهم الإجرامية في لبنان والأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧ ولما كانت حرب لبنان الأولى (١٩٨٢) من تنفيذ حكومة ليكودية بزعامة مناحيم بيغن، فقد اعتقد عدد كبير من الصهاينة العماليين

منظمة أميركية من ٢٠ ألف عضو ونصير^(١) و١٦ آخرين.

أثناء الحرب الأخيرة سُجِن ضابطٌ إسرائيلي لرفضه الذهاب إلى لبنان. وسُجِن ثلاثة آخرون لرفضهم أداء الخدمة العسكرية في الضفة الغربية. وثمة آخرون تهربوا من الخدمة من دون أن توجه إليهم التهم في المحاكم العسكرية وقد أبلغ يوناتان شايبيرو، وهو ريان هيليكوبتر صُرف من احتياطي القوات الجوية بعد أن رفض الخدمة في الضفة الغربية وغزة، الأوبزفير اللندنية أنه تحدث إلى عدة ربابنة طائرات F-16 ممن تعمدوا أن يخطئوا أهدافهم في لبنان لأنهم خافوا من وجود مدنيين!

لكن خلافاً لسنة ١٩٨٢، لم تصبح حركة السلام الإسرائيلية ظاهرةً جماهيريةً عام ٢٠٠٦. فما هو تفسير ذلك الخلاف؟ أحد عناصر التفسير هو أن تدمير إسرائيل للبنان اليوم حظي بتسويق ودعم غير محدود من الولايات المتحدة، في حين وقفت أوروبا خاملةً جانباً. أما العنصر الثاني فهو طبيعة قوى السلام الإسرائيلية

فبعض اليهود الإسرائيليين ينتقدون حكومتهم على نحو ثابت، ويسعون إلى

العرب وداخل عالمها الأوروبي «نحن هنا، هم هناك»، على ما قاله رئيسا وزراء إسرائيل إسحاق رابين وإيهود باراك بخصوص الفلسطينيين

عند توقيع إسرائيل ومنظمة التحرير «إعلان المبادئ» في أوسلو عام ١٩٩٣ غمرت مشاعر الفرح قوى السلام الصهيونية، مع أن هذا الاتفاق الجديد لم يتضمن إنشاء دولة فلسطينية ولا الانسحاب الإسرائيلي الكامل من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧. ونادراً ما أشارت قوى السلام تلك إلى أن عدد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة وقطاع غزة والقدس الشرقية قد زاد أثناء التسعينات أكثر من ٧٠ في المئة. قلّة من قوى السلام، باستثناء الفريق المسمّى Checkpoint watch، راقبت حواجز التفتيش الإسرائيلية الكثيرة التي أنشئت بعد سنة ١٩٩١ وأخضعت الفلسطينيين إلى إذلال يومي وتعويق يومي للنشاط الاقتصادي. وبسبب هذه الحواجز بشكل كبير، لم تكن ثمة «حصّة من السلام» للفلسطينيين في الضفة وغزة، بل تدهور مستوى معيشتهم.

لم يكن معسكر السلام الصهيوني يعتقد بوجود إشكالية في أن تُرجأ إلى «المرحلة النهائية» من المفاوضات مسائل من قبيل: مدى الانسحاب الإسرائيلي من الضفة والقطاع، والهوية السياسية

للكيان الفلسطيني المزمع إنشاؤه في الأراضي التي تنسحب منها إسرائيل، ومستقبل المستوطنات الإسرائيلية والمستوطنين الإسرائيليين، ووضع القدس، وقضية اللاجئين، بل إن كثيراً في ذلك المعسكر آمنوا أن منظمة التحرير ستتخلى في النهاية عن قضية اللاجئين برمّتها لأنّ إسرائيل لم توافق قط (إلا في فترة قصيرة أثناء محادثات رودس عام ١٩٤٩) على عودة أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين. ومن ثم استغربت قوى السلام الإسرائيلية واغتازت من رفض ياسر عرفات لشروط السلام التي عرضها إيهود باراك في قمة كامب دايفيد في تموز (يوليو) ٢٠٠٠. بل ذهب تلك القوى إلى أن تحتضن، وعلى نحو لائق، حملة البروباغندا الإسرائيلية التي كانت تصوّر الفلسطينيين وهم يواجهون عرض باراك «السخي» بالعنف ورغم كل البراهين المعاكسة لتصوّراتهم فقد اعتقدت تلك القوى أن ياسر عرفات لم يُنوّأ أبداً توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل ولم يكن «شريكاً في السلام». وانطبق الأمر بصورة أكبر على موقف تلك القوى من حركة «حماس» ونسبت قوى السلام الصهيونية أن إسرائيل رفضت التفاوض مع أبو مازن، رغم أن إسرائيل والولايات المتحدة أبدأت استحسانهما لأن يكون خليفة لعرفات في رئاسة السلطة الفلسطينية

وهكذا وصل أكثر العناصر الصهيونية في حركة السلام الإسرائيلية إلى حرب لبنان عام ٢٠٠٦ وهم في حال من قصر النظر وفقدان الذاكرة التاريخية. لقد أخافتهم صواريخ صدام حسين (ال «سكود») أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، والانتفاضة الثانية، وانتصار «حماس» في انتخابات كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦، ودفعتهم إلى قبول تكتيكات الجيش الإسرائيلي الإجرامية التي كانوا سيدنونها في السابق ولذا كانت إسرائيل خلال الشهر الأول من حرب لبنان عام ٢٠٠٦ أكثر توحداً من أي وقت منذ الحرب العربية-الإسرائيلية عام ١٩٧٣

دعمت الشخصيات والمنظمات البارزة في حركة السلام الصهيونية الهجوم على لبنان وفي اجتماع لـ «حركة السلام الآن» في ٢٤ تموز (يوليو) رفض قادة الحركة اقتراحاً بالمطالبة بوقف النار، وكانت حجّتهم أن أنصار الحركة لن يفهموا ذلك الموقف وأن وقف إطلاق النار قد يساعد حزب الله وفي ٦ آب (أغسطس)، بعد أن اتضح أن أهداف الحرب الإسرائيلية لن يُمكن تحقيقها بسهولة، طالب ثلاثة روائيين صهاينة بارزين سبق أن أيّدوا الحرب بوقف إطلاق النار - وهؤلاء هم: عاموس عوز، و.ب. يهوشوا، ودايفيد غروسمان

كان يمكن استعادة الأسيرين دون إطلاق
رصاصة واحدة، لكن الهدف من الحرب
هو ترميم «قوة الردع» الإسرائيلية.

تجاهل بعض نشطاء «حركة السلام الآن» حزب ميريتس قادتهم، ودعوا إلى «مظاهرة صهيونية» للمطالبة بوقف إطلاق النار في ١١ آب. ولم يتبن «القادة» هذه المطالبة إلا بعد أن أشرفت الحرب على نهايتها. ووردت تقارير واسعة الانتشار عن هجوم بري كبير للوصول إلى نهر الليطاني، فانتعشت قوى السلام الصهيونية، ورفضت تلك الخطة واصفة إياها بأنها مناورة من قبل القيادة العليا للجيش من أجل إعطاء انطباع كاذب بالنصر.

لماذا رفض قادة حركة السلام الصهيونية معارضة حرب غير ضرورية على الإطلاق؟ لقد كان سهلاً فعلاً معارضة مثل هذا الهجوم الشرير الموجّه أساساً ضدّ المدنيين اللبنانيين، والذي كان مخطّطاً له قبل شهر من أسر حزب الله جنديين إسرائيليين وقتل ٨ آخرين في ١٢ تموز ٢٠٠٦. وكان ممكناً فعلاً استعادة الأسيرين من خلال تبادل للأسرى بين الطرفين من دون إطلاق رصاصة واحدة غير أن هدف الحرب كان حربيّاً: ترميم قوة الردع الإسرائيلية.

إنّ تفسير ذلك يكمن في الطبيعة الفريدة لحركة السلام الإسرائيلية إذ يُشاطر العناصر اللاصهاينة القيم

الأسهم ٣ ساعات فقط بعد أسر الجنديين الإسرائيليين في ١٢ تموز، وتعرّض لضغوط من أجل دفعه إلى الاستقالة. وماتت خطة أولرت لإعادة انتشار إسرائيلية أحادية في الضفة الغربية. والأرجح أن تكون أيام حكومته معدودة، ويغلب الظن أن يُعاني حزبه (كاديما) هبوطاً حاداً لأنّه ليس لديه برنامج غير إعادة الانتشار تلك

إنّ الرابطة الحميمة بين حركة السلام الصهيونية والجيش الإسرائيلي، على كونها مقرّرة سياسياً وأخلاقياً، تعطي أملاً بسيطاً بأنّ الحرب الأخيرة قد تؤدي إلى تغيير سياسي إيجابي في إسرائيل. إنّ فشل إسرائيل العسكري في حريها مع العرب عام ١٩٧٣ كسّر حرم (تابو) نقد الجيش، وأعاد رسم الخارطة السياسية، وكسّر أسس حركة سلام جماهيرية بعد عقد. ولقد فشلت هذه الحركة في مواجهة تحدي الانتفاضة الثانية وحرب لبنان عام ٢٠٠٦. إنّ ربع قرن من التجربة قد يُنتج حصيلة أفضل أو يثبت الانحلال التام للمجتمع الإسرائيلي. وفي الحالتين فإنّ ذلك لا يقم إلاّ عزاءً بسيطاً فحسب إلى الشعب اللبناني الذي دُفع ثمناً هائلاً من أرواح بشره ودمار مجتمعه وتحطّم بناه التحتية، علّ إسرائيل تتعلّم الدرس.

القاهرة

المشتركة للحركات التقدمية في العالم. أما العناصر الصهيونية فهم دوماً عالقون في تناقض: بين أن يُثبتوا ولاءهم ووطنيتهم الإسرائيلية، وبين ضميرهم الإنساني الذي يتمرّد على الأعمال المروّعة التي تنفذها حكومتهم. إنهم فخورون بأداء الخدمة في الجيش، ولاسيما كضباط في وحدات النخبة القتالية. ويصعب عليهم كثيراً أن يصدّقوا أن القيادة العليا للجيش، وكثيراً من الضباط السياسيين المتقاعدين، وغيرهم ممن يرون العالم من خلال فوهة بندقية، لا يقيمون أيّ اعتبار للأرواح العربية ولا اعتباراً أفضل بكثيراً للأرواح اليهودية نفسها. وهم يعادون الحروب في المبدأ، وكثير منهم قد يدرك أنّ القوة لن توفر لإسرائيل الأمان ولن تحلّ صراعاتها مع جيرانها. غير أنّهم يفتقرون إلى الشجاعة السياسية والأخلاقية لمعارضة الحرب أثناء حصولها

إنّ إسرائيل تواجه أزمة متعددة الأبعاد. فقد هبطت شعبية رئيس الوزراء إيهود أولرت بشكل حاد. وفقدت القيادة العليا للجيش سمعتها بسبب فشلها العسكري المتكرّر. وهاجمت وسائل الإعلام رئيس الأركان دان حالوتس لبيعه ما قيمته ٢٨ ألف دولار من